المنهجية التاريخية عند عبد الرحمن بن خلدون

للأستاذ مكيوي محمد / جامعة تلمسان.

إن الحوار بين المتخصصين حول هذه الدراسات يغني الفكر الخلدوني، الذي ظلت إشكالياته قائمة في حياتنا المعاصرة، بل نعيش عصرا يماثل في كثير من ملامحه شيئا من عصر ابن خلدون، من عدوان على الأرض، وشتات في الرأي، وانقسام في الصف، وجمود في الفكر.

إن ابن خلدون لم يكن على خصائصه الفكرية، ووعيه الاجتماعي وحسه السياسي فلتة من فلتات الطبيعة، ولم يكن صاحب وحي هبط عليه ولكنه حصيلة فكرية لمجتمعه، وهو ظاهرة شرعية لعصره، وإذا كانت هناك فروق بينه وبين غيره فهي ظروفه الخاصة، التي جعلت منه رجل سياسة في زمن سياسته غير مستقرة وكانت معاناته الشخصية والتزاماته العامة، عوامل منحته القدرة على الاتصال والانفصال، أو على التغلغل والتحايق. إذ يتصل بالحياة اتصال المشارك والعامل في وجوه نشاطها، ثم ينفصل عنها ويستقل بنفسه يتأملها ويتدبرها ويحللها ويتغلغل في بواطنها ويخالطها ويحلق فوقها، ويجعلها موضوع درسه، ويتاح له بذلك أن يبحثها بحثا موضوعيا، يعتمد على التحليل والتعليل ويصل إلى استنباط النظم، واستخراج القوانين، وبهذه الملكة استطاع أن يقدم للعلم هذه الدراسة الدقيقة والعميقة، التي مازالت تقرن إليه وتوسم باسمه، والتي استطاع أن يضع بها الخطوط الأولى واضحة جلية لفلسفة التاريخ، ويخط بها السبل الأولى، واسعة معبدة لعلم الاجتماع، كما استطاع أن يؤدي بها خير أداء صورة دقيقة وموضوعية لتطور الفكر الإسلامي في مناحيه المختلفة مربطا بأسبابه في سياق علمي.

ولذا فابن خلدون، في فكره وفي معاناته وفي التزامه رمز لما ينبغي أن يكون عليه المثقف العربي.

ونعد من أول ما يلفت نظر الباحث في حياة ابن خلدون العلمية ويثير تساؤله، أنّ التاريخ لم يكن من الفنون التي تلقاها من شيوخه الذين عني بذكرهم وفصل الحديث عنهم، وذكر وجوه تخصصهم، وكان ذلك من همه في صدر حياته -فيما أتيح لنا أن نعرفه- أن يكون مؤرخا يلتمس رواة الأخبار، يملأ ذاكرته بما يروى

الكتب التي كان يدرسها إذا ذاك كتابا من كتب
عنهم ولم يدرس إلا بكتابه في هذا الفن
التاريخ، ومع ذلك فلم يكد يعرف أو يذكر
وخاصة المقدمة الرائعة التي كتبها فكانت فتحا علميا له.

إن هذا الكتاب لم يكن نتيجة التحصيل العلمي وإنما -إلى تلك
الفترة التي حمله فيها تيار السياسة وجعله يطوف به في مناحيها
المختلفة وأصبح أولي الأمر يعتبرونه المرجع الذي يعولون عليه في
سياسة القبائل المختلفة، والعربية منها خاصة.

ووقوفه على المكتبات المختلفة خلال هذه المرحلة في مدن
المغرب الأدنى، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى، الأندلس والوقوف
في غير أوقات الفتن على ذخائرها.

فكان يقبل على قراءة هذه الذخائر بنهم بعقل متفتح وبصيرة
نافذة ومزاج عقلي قدير على الجمع بين الأطراف المختلفة وتجريدها،
واستنباط القوانين الكلية التي تحكمها والنظم التي تجمع بين طوائفها.

وأكبر الظن أن عكوفه، في مرحلة التحصيل العلمي على مثل
شيخه [أبي عبد الله الآبلي] وطول اتصاله به كان من أول ما أضاء
بصيرته في وضع هذا الكتاب.

لا وجهه هذه الوجهة وجعله يتغلغل في بواطن الأخبار
يتحسسها ويلتمس مصادرها، ويتطلع إلى الحقائق الكامنة وراء ظاهر
الأحداث، غير مقتنع بما تفيده، حتى يبلغ به الأمر إلى القول أن فن
التاريخ غير بعيد عن فنون الحكمة التي عكف على تلقيها عن شيخه
الآبلي والإمعان في درسها في جلوسه إليه فترة غير قصيرة.

إن التقاء ابن خلدون بالتاريخ كان عرضا في حياته، ومنعرجا
مفاجئا بقدر ما كان حاسما، هذا المنعرج كان في ملتقى طريقين:

- طريق المغامرات السياسية وطريق التأمل في الماضي
قريبه وبعيده.
- فالطريق الأول سلكه بنفسه، وحط رحاله في المغرب في
كل مراحلها التي تسودها المؤامرات والاغتيالات والخيانة
والانتصالات الفاشلة، والإجهاضات.
- والطريق الثانية تلوح متشابكة المسالك، ملتوية الممرات
كثيرة المتاهات، معقدة في صعودها ونزولها في أضوائها
وظلماتها، وقف ابن خلدون في ملتقى الطريقين يتأمل.

وبعد أن ارتمى في النشاط السياسي بكل ما يملك من اندفاع الشباب وحماسه وطموحه وبكل ما يوفره له رصيد أسرته، أن يعتزل ويقيم:

واعتزل طوال أربع سنوات (776-780هـ/1375-1379م)

بقلعة بني سلامة[1].

وهكذا التقى بل اصطدم بالتاريخ، أحسّ بالحاجة إلى الفرار من الفوضى، وإلى محاولة فهم ما كان يجري من أحداث وكيف تفهم الأحداث، وهكذا أصبح ابن خلدون مؤرخا، لم يكن التاريخ من قبل حرفة ولم يسبق أن ألف فيه قط، ولقد بقي ابن خلدون يتذكر جيدا تلك الحالة النفسانية التي اعترته وهيمنت عليه في عزلته، حين كانت تجيش في عقله المعاني التي أفرغها في وعاء المقدمة، وكانت تلك الحالة لاحتدامها ولما واكبها من اكتشافات تشبه تماما حالة الإلهام وهكذا يصفها في تعريفه[2]: (وأنزلوني بأهلي في قلعة بني سلامة ... فأقمت بها أربعة أعوام، متخليا عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة من على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، وكانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس كما نذكره).

ماذا اكتشف ابن خلدون في عزلته؟ هل اكتشف علم التاريخ؟ كلا، إنما اكتشف علما لم يكن معروفا من قبل، فأعطى هذا المولود الجديد اسم علم العمران، وله وضع المقدمة، وفي ذلك انعراج بين نقطة الانطلاق ونقطة البلوغ.

عند الانطلاق كانت شواغله بدون شك تتعلق بالمنهجية التاريخية[3]. ذلك أنه لسلامة التأمل في الحوادث قريبها وبعيدها حاضرها وماضيها لابد من التأكد من صحة ما يروى إلينا وينقل وجب البحث عن منهجية توفر هذه الصحة. غير أن هذا البحث أدى إلى نتيجة لم تكن مفترضة مسبقا، أو متوقعة حتما عند الانطلاق. لقد أدى البحث إلى اكتشاف علم مستقل بنفسه[4]، وكم يقع هذا للعباقرة في مختلف العلوم، وكان ابن خلدون واعيا لذلك كل الوعي بل إنّ عبارته تدل على مدى اندهاشه لهذا الاكتشاف المفاجئ، وعلى اعتزازه بطرافة وخطورة ما اهتدى إليه بحدس يشبه الإلهام.

قائلا: "وكأن هذا علم مستقل بنفسه: فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه

من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى ... واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة أعثر عليه البحث، وأهدى اليه الغوص"[5].

ثم يزيد مؤكدا من جديد: "ونحن ألهمنا الله الى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم، فإن كنت قد استوفيت مسائله، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه، فتوفيق من الله وهداية، وإن فاتني شيء من إحصائه فللناظر المحقق إصلاحه، ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره ومن يشاء[6].

لا يترك مجال للشك في أن المقدمة وإن كمقدمة لكتاب العبر، إنما هي في جوهرها وعاء لعلم جديد.

- كيف حصل هذا الاكتشاف الخطير الذي خلد ذكر ابن خلدون وأحله أسمى مكان بين مفكري البشرية؟

- لقد كانت شواغله أولا منهجية، وأنه كان يرغب أيضا من التاريخ فهم الواقع الذي مارسه.

- وقد بدأ ابن خلدون بالإشادة بفن التاريخ، ويلاحظ أنه وإن هو [في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول]؛ [فهو في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات] وهو كذلك كله [أصيل في الحكمة عريق] [7]. فهو يربط بين التاريخ والتعليل -أي الفهم عن طريق استقصاء الأسباب- والحكمة أي الفلسفة ثم يبدأ يستعرض بسرعة ما أنجز من قبل ويخص بالذكر ابن اسحاق (150هـ/767م) والطبري (224هـ-310هـ/839م-923م) والمسعودي (346هـ- 957م) من أصحاب التواريخ العامة[8]، وابن حيان (377 هـ-469هـ/987م-1076م) من أصحاب التواريخ المقيدة بقطر أو عصر[9]. ويضيف: (ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد بليد الطبع والعقل، أو متبلد ينسج على ذلك المنوال، ويحتذي منه المثال، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال)، ومعنى ذلك أن التاريخ ناله الجمود في نظره، وهو في حاجة إلى تجديد وهذا ما جره إلى وضع كتاب رسم له كغاية أن يكون (مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة، وأسلوبا) [10]. ثم التخطيط العام للكتاب الذي رتبه

وهذه (المغالط) العديدة هي التي دعت ابن خلدون للبحث عن أسبابها، وتلك مرحلة أساسية في كل علم تسبق وتهيء البحث عن العلاج.

هذا مفتاح المشكلة عند ابن خلدون، حقا كان التاريخ في عصره بعيدا عن أن يمتلك قاعدة النظام العلمي، كان التاريخ في كل التصنيفات المختلفة للمعرفة يدخل ضمن العلوم الدينية والأدبية.

وفي هذا الإطار تطرح الإشكالية التاريخية عند ابن خلدون، هل يمكن أن يكون التاريخ علما؟.

وللإجابة على هذه الإشكالية يبدأ بنقد التاريخ.

انتقد ابن خلدون، قبل أن يقدم لنا منهجه، المؤرخين الذين سبقوه ولم يكن هذا النقد سلبيا عقيما، انتقادا من أجل متعة الانتقاد ولكن لتصحيح الأخطاء.

إن الطريقة المتبعة في التاريخ قبله كانت بدائية لأنها تكاد تكون وصفية روائية بحتة، ويعترف ابن خلدون أن من بين المؤرخين العرب الذين يستحقون الذكر ستة وهم: الطبري، وابن الواقدي، وابن إسحاق، والأسدي، وابن الكلبي والمسعودي، وكلهم من المؤرخين الذين عاشوا ما بين القرن 8 و10 وأشهرهم بدون منازع هما: المسعودي صاحب مروج الذهب والطبري الذي ترك كتابا ضخما في تاريخ الأمم والملوك ويوضح ابن خلدون أنه بالرغم من أن هؤلاء المؤلفين من المشاهير فمؤلفاتهم لم تبلغ درجة الإتقان.

وهناك عوائق تحول دون الوصول إلى الموضوعية وهي العوائق السبعة وهي: روح التعصب، الثقة العمياء في الرواة، جهل المعنى الحقيقي للأحداث، الادعاء بمعرفة الحقيقة والتزويق المقصود والتحريف والجهل، وتنقسم أسباب الأخطاء في الواقع إلى ثلاثة أنواع وهي:

ثقافة المؤرخ، صدق المؤرخ، مستوى المعرفة لدى المؤرخ والنوع الثالث أهم من النوعين السابقين.

وعندما ينتقد ابن خلدون نقص المعرفة عند سابقيه، فهو ينتقد في الحقيقة، الأهمية التي يوليها هؤلاء لأشياء عادية منعزلة على حساب ما هو عام وما يسميه العلماء والفلاسفة التصور، هذا النقد سيكون نقطة انطلاق لمفهوم جديد للتاريخ. والخلاصة التي يصل إليها ابن خلدون هي أن المؤرخ لا يرتكز فقط على الملاحظة البسيطة، بل

يقتضي الوصول إلى إيجاد وقائع يقينية، يجب عليه بالضرورة البدء من وقائع.

وهذا الجهد في المعرفة لا يقوم فقط على البحث عن وقائع حقيقية، بل يقوم على البحث عن الارتباطات الضرورية بين الوقائع. من هنا يبدأ فن التاريخ ويتم كعلم تاريخي حقيقي:

[إن التاريخ في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون، تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال وهو في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق][16].

إن نقد عيوب التاريخ يفتح المجال لإعادة النظر فيه، إن مهمة التاريخ ليست سرد الوقائع الماضية، حتى وإن كانت صحيحة وإنما تحليل الارتباط بين الوقائع وإظهار والنسق الخفي لها.

وهناك مسألة أخرى تطرح أيضا، وهو موضوع التاريخ الذي يعد في صلب الإشكالية الخلدونية.

إن معيار أساس نقد الأخبار يقوم على البحث إذا كانت الواقعة المذكورة ممكنة، ووضعها من جديد في داخل المجتمع الذي تنتمي إليه. أي أن القاعدة المطبقة في التاريخ للتمييز بين الصواب والخطأ تقوم على دراسة المجتمع البشري العمراني، وفي هذه الحالة يجب أن نفرق جيدا بين ثلاثة أشياء: ما هو ملازم لجوهر وطبيعة العمران، ما هو عارض ومهمل، وما ليس له علاقة به.

إن هذا الحل الذي أتى به في مسألة المعيار للتحقق من الأخبار التاريخية يقوم في الوقت نفسه بالإجابة على مسألة التاريخ.

- إن موضوع التاريخ هو المجتمع وبالأحرى دراسة وأسباب تطور المجتمعات.
- إن ابن خلدون واع بحدة موقفه والتغيير الذي أدخله على نظام التاريخ: "إن قصدنا الحالي هو مفهوم جديد، ذو أصالة كبيرة وفائدة قصوى، ولقد تناولته بروح عميقة بالبحث، وليس له أية علاقة بالبلاغة ....، وليس بسياسة كذلك... إنه علم جديد أصيل كليا"[17].

والخلاصة التي خرج بها ابن خلدون: للتاريخ وجهان:

الأول ظاهري يعيد تخطيط الأحداث: " ولا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى". وكان المؤرخون

يستعملون فيه الأسلوب الأنيق والتعابير المجازية كي يبهروا المجالس الأدبية، فيجوز لذلك أن ينعت هذا النوع من التاريخ بأنه تاريخ صوري.

أما الوجه الثاني للتاريخ فباطني وهو عبارة عن: "نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير أن يعد في علومها وخليق"(18).

وقد اقتضى هذان الوجهان وجود صنفين من المؤرخين:

1- إخباري مجرد جماعين للأخبار لا يهمهم إلا الجانب الأدبي الصوري لما يحكون ويكتفون بالحديث عن الدول وتسلسل الملوك والأمراء، حسب قوله: [نسبه وأباءه وأمه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره، كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة](19)، في حين كان يجب أن يتناول هؤلاء المؤرخون كل الأحداث المتصلة بحياة المجتمع على اختلاف هيئاته وأفراده.

2- المؤرخون الحق وهم الذين يجعلون مهمتهم تتبع التغيرات فيبحثون عن وسائل إدراكها كيف ما تبرز وتصبح قابلة للتصور والفهم من لدن الأجيال المقبلة: قال: "تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق من جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل"(20).

هكذا نرى إلى أي حد كانت حدسيات ابن خلدون صائبة وثرية لا تتعارض مع الاتجاه الحديث الذي يفرق بين التاريخ الواقعي وتاريخ أعراف المجتمعات البشرية ومؤسساتها، فلا أحد من المؤرخين الذين يحملون هذا الاسم عن جدارة يرفض تعريفه للتاريخ أو يعارض المنهج الذي يخطه له: "الاختبار والتمحيص".

فطبيعي أن يفضل صاحب المقدمة، الوجه الثاني، الذي يبين العلاقات القائمة بين الأحداث، ويقوم بتمحيص المعطيات، ويبحث عن العلل.

إن حاسته القوية جعلته يشعر بما للصيرورة من دور فعال، فإذا كان كل شيء في الكون يتغير ويعاد خلقه وتنظيمه، فمن الضروري أن يوجد نوع جديد من المؤرخين قادر على إدراك ديناميكية التاريخ المتصلة.

وبفضل هذا التصور الخلدوني للتاريخ انفتح أفق جديد على ميادين كانت إلى عهد ابن خلدون تعتبر ثانوية، وارتقى التاريخ فجأة إلى صف العلوم، وأمسى المؤرخ مطالبا أن يأخذ في اعتباره عوامل الطقس والمبادلات الاقتصادية ونظام المجموعات الحرفية والمهنية والمعتقدات والأديان.

فقد ظل التاريخ زمنا طويلا محنطا داخل صيغ دوغماتية تختلط فيها الأساطير بالأحداث خلطا، وأعقم كل مبادرة حرة للمؤرخ، ووقف حاجزا دون التأملات الشخصية والموضوعية إلى أن أصبح مع ابن خلدون شاهدا يؤكد سلطة الإنسان وقدراته، فأضحى ضروريا الاقتناع بأن التاريخ لم يكتب مسبقا في لوح محفوظ، ولكنه ينجز باستمرار ويتجدد على الدوام، لكنه يتجدد داخل إطار عام يجب أن نأخذ فيه بعين الاعتبار كل العوامل القارة: تأثيرات الاقتصاد والدين، وفعالية روابط الدم والعصبية، ومستوى الثقافة [تباين المستويات بين العمرانيين البدوي والحضري وبين مختلف درجات كل عمران].

[illegible]

(1) [illegible]

(2) تحقيق: [illegible] ص 226، 229.

(3) [illegible] علي عبد الواحد، القاهرة [illegible] ص 349–413.

(4) [illegible] ج 1 ص 413.

(5) المصدر السابق ص 413–414.

(6) المصدر السابق ص 417–418.

(7) المصدر السابق ص 351.

(8) المصدر السابق ص 352.

(9) المصدر السابق ص 353.

(10) المصدر السابق ص 358.

(11) المصدر السابق ص 355–356.

(12) المصدر السابق ص 393–406.

(13) المصدر السابق ص 356.

(14) المصدر السابق ص 351.

(15) المصدر السابق ص 405، حيث يعني أنه [illegible] المؤرخين يرجعون إليه).

(16) المصدر السابق ص 351.

(17) المصدر السابق ص 17.

(18) المصدر السابق ص 351.

(19) المصدر السابق ص 356.

(20) المصدر السابق ص 358.